

المحور: رجال التصوف والطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني.

المحاضرة-الأولياء الصالحون والطرق الصوفية:

تعددت تعريفات التصوف الإسلامي، وسنتطرق إلى أهمها بدءا بمعروف الكرخي (ت200هـ)، الذي يعتبر التصوف أخذا بالحقائق ويأس مما في أيدي الخلائق، أما ذو النون المصري (ت 245هـ)، فيرى أن المتصوفة قوم آثروا الله عز وجل على كل شيء، فأثرهم الله عز وجل على كل شيء، في الوقت الذي يعتبر فيه الجنيد البغدادي (ت 298هـ) الصوفي من أحس قلبه السلامة من الدنيا كما أحسها قلب إبراهيم فأطاع أوامر الله، ومن كان تسليمه كتسليم إسماعيل، وحزنه كحزن داوود، وفقره كفقر عيسى وشوقه كشوق موسى في وقت مناجاته، وإخلاصه كإخلاص محمد عليه السلام¹، أما ابن خلدون فقد عرف التصوف بقوله: «أصله العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة»².

ويرى ابن تيمية أن أول ظهور للصوفية كان في البصرة، وأول من بنى دارا للصوفية هم أصحاب عبد الواحد بن زيد وهو من أصحاب الحسن البصري، وقد كان بالبصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ما لم يكن في سائر الأقطار، ولذلك قيل بأن الفقه كوفي والعبادة بصرية، وقد برزت الحركة الصوفية خلال القرن الثاني للهجرة (8م) وما بعده مع سلوك رابعة العدوية، ثم ابن يزيد طيفور الفارسي،

¹ عبد القادر صحرابي، الأولياء والتصوف في الجزائر خلال العهد العثماني (1520-1830م)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2016م، ص ص.20.

² عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، د.ط، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، مج. 1، ص.683.

خاصة وأن يعداد كانت عامرة بالعلماء في نهاية هذا القرن، إلى جانب النشاط الكبير الذي تجلى في المناقشات والمناظرات العقائدية والشرعية التي ميزت المشرق الإسلامي، الأمر الذي زاد في ازدهار التصوف ونمو مبادئه، وفي القرنين الثالث والرابع الهجريين تحولت الحركة الصوفية إلى تيار فكري مع بروز الحلاج، وقد تم التوفيق بين التصوف والسنة ابتداء من القرن الخامس للهجرة بفضل الإمام القشيري ورسالته، كما حدث توافق بين الصوفية والفقهاء بفضل الإمام أبي حامد الغزالي (ت505هـ) عند كتابته الإحياء¹.

انتقل التصوف من المشرق الإسلامي إلى بلاد المغرب والأندلس على يد ابن العربي (ت543هـ) وأبي الحسن الشاذلي (ت656هـ) وعبد السلام بن مشيش (ت625هـ)، وذلك ابتداء من القرن السادس هجري، ورغم تحريم كتب أبي حامد الغزالي بالمغرب والأندلس وإحراقها، فقد مد التصوف جذوره في عهد المرابطين، وفي عهد الدولة الموحدية انتشرت دعوة الصوفية إلى القناعة والزهد في أوساط العامة بفضل تأثير أبي مدين الغوث، وانتشرت الطرق الصوفية منذ القرن الثامن هجري، وتعددت المتصوفة لتشمل العامة، وظهرت الألقاب مثل الولي، والغوث والقطب وغير ذلك الأمر الذي جعل الناس يلتحقون بالزوايا والاعتقاد في الأولياء، الذين أصبحوا يمثلون قوة روحية لا مثيل لها².

واتسع النشاط الصوفي في صدر الدولة المرينية بمساعدة الأمراء الزيانيين الباحثين عن الشرعية، فسعوا إلى التحكم في الحركة الصوفية وضبط اتجاهاتها المختلفة، وشهد القرن التاسع الهجري (15م) انتشارا كبيرا للطرق الصوفية في بلاد المغرب

¹ صحراوي، مرجع سابق، ص.37.

² نفسه، ص.39، 41.

خاصة بين عامة الناس، فعرفت الجزائر العديد من الطرق الصوفية ذات الأصول
المشرقية والمغربية مثل القادرية والشاذلية وتفرعت عنهما عشرات الطرق الصوفية¹
وإذا انتقلنا إلى العهد العثماني، فإننا نجد أن حركة التصوف امتدادا للحركة التي
بدأت قبلها بعدة قرون، وأن معظم كبار المتصوفين ومؤسسي الطرق الصوفية في
التاريخ الإسلامي قد ظهوروا قبل القرن العاشر هجري (16م)، فالأسماء اللامعة في
عالم التصوف مثل الغزالي والحلاج وابن عربي وعبد القادر الجيلاني وغيرهم قد
ظهوروا جميعا قبل التاريخ المذكور، وعلى مستوى المغرب العربي ظهر أيضا
متصوفون لامعون قبل هذا التاريخ، ونذكر منهم أبا الحسن الشاذلي وابن مشيش وأبا
مدين وأحمد زروق وغيرهم، فإذا اقتصرنا على الجزائر وجدنا عددا من المرابطين
وأهل الزهد ورجال التصوف قد كثروا كثرة تلفت النظر قبل مجيء العثمانيين أيضا،
فبعد الرحمان الثعالبي ومحمد الهواري وإبراهيم التازي، ومحمد بن يوسف السنوسي كانوا
من ألمع أولئك الرجال، فالحركة الصوفية إذن، سواء كانت على مستوى العالم
الإسلامي أو على مستوى المغرب العربي قد ازدهرت قبل قدوم العثمانيين إلى
الجزائر².

عرف العثمانيون التصوف والطرق الصوفية قبل قدومهم إلى الجزائر، فعندما
تخرجت أول دفعة من النظام الإنكشاري، حوالي سنة 736هـ (1335م)، ولمباركتها
عرضت على الشيخ بقطاش أو حاجي بقطاش، مؤسس طريقة الدراويش البقطاشية،
الذي باركها، وتبركا به أمر السلطان العثماني بالباس الجندي الانكشاري قلنسوة من
الصوف الأبيض تتدلى من وراه رمزا لكم الشيخ حين تدلى على رأس الجندي عند

¹ صحراوي، مرجع سابق، ص. 41، 43.

² سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1، ص. 459.

مباركته، كما بنيت أيضا أول ثكنة للإنكشارية قرب ضريح الشيخ بقطاش، ومنذ القرن 16م أصبح ارتباط الجيش الإنكشاري بالطريقة البقطاشية رسميا¹.

ومنه فالطريقة البكداشية ومنذ ظهور العثمانيين كانت تقودهم وتؤثر فيهم وتدفع بهم إلى الجهاد وتبارك أعمالهم، ثم تعددت الطرق الصوفية وتأثيراتها على الترك، فانتشرت بينهم أيضا الطريقة النقشبندية والقادرية والمولوية، وقد كان الدين هو المبرر الأول لظهور العثمانيين بالمغرب، فلولا الحروب الصليبية التي شنتها أوروبا الغربية بقيادة إسبانيا ضد الجزائر، والمغرب العربي عموما لما كان هناك مبرر لتدخل آل عثمان، والذين كانوا بالطبع يبحثون لهم عن حلفاء ومؤيدين، فوجدوا ذلك في رجال الدين، وخصوصا المرابطين، وهناك مبررات كثيرة لهذا التحالف أيضا، ذلك أن الظروف السياسية والاقتصادية والدينية كانت تستوجب ذلك².

وأمام الضعف السياسي للدولتين الزيانية والحفصية لم يبق أمام المرابطين سوى أن يعتمدوا على أنفسهم في الدفاع عن الأراضي الإسلامية التي تعود إليهم، لذلك كانوا يتولون القيادة بأنفسهم ضد العدو، أو يوجهونها روحيا وذلك بإصدار الأوامر إلى أهل المدن الساحلية ونحوها للدفاع عن أنفسهم، ويظهر ذلك جليا في رسالة الشيخ الصوفي العالم عبد الرحمان الثعالبي الذي دعا سكان مدينة الجزائر وما حولها للجهاد ضد الصليبيين، وكذلك راسل أهل بجاية لنفس الغرض³.

وجاء في رحلة بيري رايس العثماني أن الشيخ محمد التواتي كان يحمي مدينة بجاية من الاسبان وأن زاويته كانت ملجأ للمجاهدين وغزة البحر، وأنه حين توفي الشيخ

¹ جميلة معاشي « الإنكشارية والمجتمع ببابيك قسنطينة في نهاية العهد العثماني »، شهادة دكتوراه، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 1428-1429 / 2007-2008م، ص ص. 03-04.

² سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1، ص. 460.

³ سعد الله، أبحاث وآراء، ج. 1، ص ص. 208-209.

سقطت المدينة في أيدي العدو، وفر منها الأمير الحفصي، ومن الحكايات التي تروى عن احتلال وهران أن الشيخ محمد الهواري قد نغم على أهلها فرفع حمايته عنها ودعا عليها بالسقوط في أيدي الكفار، فكان الحال كذلك، والمؤكد أن بعض المرابطين والعلماء كانوا غير راضين عن تطور الأوضاع في تلمسان أواخر القرن التاسع وبداية العاشر، فانضم المعارضون منهم إلى العثمانيين أمثال أحمد بن يوسف الملياني وابن آفغول ومحمد بن شعاعه، بينما توجه آخرون منهم إلى المغرب، ومنهم من ظل ناقما وهو في مكانه مثل الحاج محمد المناوي، فالأرضية السياسية إذن كانت ممهدة لظهور المرابطين وتوليهم مسؤولية الدفاع عن الإسلام بأنفسهم والتحالف مع قوى إسلامية جديدة¹.

كان لتعاليم أبي الحسن الشاذلي أثر كبير في الجزائر، فمعظم الطرق الصوفية التي ظهرت بعد القرن الثامن الهجري (14م) تتصل بوجه أو بآخر بتعاليم الطريقة الشاذلية، وقد أحصى بعضهم عدد الطرق الصوفية في المغرب العربي أواخر القرن الثالث عشر (19م)، فوجد ثلاث عشر طريقة من مجموع ست عشر وكلها شاذلية الأصل، وكان أبو الحسن الشاذلي قد تأثر بتعاليم عبد السلام بن مشيش، تلميذ أبي مدين، ورغم ذهاب الشاذلي إلى مصر ووفاته بها، فإن تعاليمه قد انتشرت بعده في المغرب العربي انتشارا كبيرا، ويمكننا أن نعد الشيخ محمد الهواري وإبراهيم التازي ومحمد بن يوسف السنوسي وعبد الرحمان الثعالبي وأحمد الملياني وغيرهم من أتباع الطريقة الشاذلية، وجميعهم قد أثروا على معاصريهم وتركوا تلاميذ وأتباعا، وأسس بعضهم زوايا، ونستطيع أن نقول أن الجزائر قبل العثمانيين كانت من الناحية الصوفية تحت نفوذ الطريقتين الشاذلية والقادرية².

¹ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1، ص ص.460-461.

² نفسه، ص ص.461-462.